أسرار الضوء

ياسين عدنان

المواعيدُ منشورةٌ
فوق حبلِ الغسيلْ
والعصافيرُ مبحوحةٌ
مُنْهَكَهْ
يا دَمَ الوقتِ سِلْ
من مآقي الأصيلْ
يا ظِلالَ الأُفُقْ
أسرارُكِ الغُرَفُ المُبْهَمَهْ

مثلَ قافلةٍ مُتْعَبَهْ
تَحُطُّ نُسورُ المساءِ
حقائبَها القُرْمُزيَّةَ
في غُرَفِ الطَّالِبَاتْ
تتجرَّدُ من ريشِ رِحْلَتِها البِكْرِ
تقتادُ شَمْسَ تَسَكُّعِها
لكهوفِ التَّشَظِّي
والبناتُ يُقَشِّرْنَ مَوْزَ الأَنامِلِ
في لَهْفَةِ الانتظارْ
والدَّقائقُ تجْلِدُ نَبْضَ الهوى
بِسِياطِ النَّهارْ

ها سناءُ: فتاةُ القصيدة
تفتحُ شُبَّاكَها لِلطّيورِ الَّتي
لَمْ تَعُدْ بَعْدُ
مِنْ نَشْوَةِ الاحتضارْ
تَتَرَدَّدُ في أنْ تَبُوحَ لِنَخْلِ المدينةِ
بالتَّعَبِ المُتَسَلِّلِ من دَمِها
نَحْوَ بُرْجِ البَلَحْ
تَعْتَلِي تَلَّةَ القلبِ
كيْ تَقْطِفَ الضَّوْءَ
والجُثَثَ القَمَرِيَّةَ
من شَجَراتِ الحُلُمْ

ها سناءُ
تُهَرِّبُ زينَتَها
والمفاتِنَ
في عَجَلٍ
عَبْرَ أنْفاقِ مرآتِها المائلَهْ
تَطْمَئِنُّ على وَرْدِ سحْنَتِها المُرِّ
تَسْريحَةِ الشَّعْرِ
فُسْتانِها الـ Rose
وبسمتِها الحلوة القاتلَهْ

فَهَلْ يا سناءُ تُعِدِّينَ نفْسَكِ
من أجلِ لُقْيا الحبيبْ
والشِّعاراتُ تَنْبُتُ في ساحةِ «الحَيِّ»
تَقْتَصُّ صَمْتَ المكانِ
بِمَا في حَناجِرِنا مِنْ لَهيبْ؟!
هُوَ الرَّأْيُ رَأْيُكِ
يا رَنَّةَ الفَرَحِ اللَّمْ يَحِنْ بَعْدُ
يا شارَةَ الانتصارِ القريبْ
فانْظُري طَعْنَةَ السَّفْحِ
ها شمعةُ الأُفْقِ في مُقْلَتَيْكِ
تَسَّاءَلُ:

هَلْ موعدُ الحُبِّ...
أَمْ موعِدُ الرُّفَقاءْ؟

أجابَتْ
وفي وَجْهِها أَلَقٌ أَطْلَسِيٌّ:
بَلِ السَّاحَةُ الآنَ كُلُّ اللِّقاءْ
هِيَ السَّاحَةُ الآنَ كُلُّ اللِّقاءْ

وفي اللَّيْلِ
وهي تُهَيِّئُ بحثاً
عن «الشِّعْرِ والشُّعَرَاءْ»
وتشربُ قهوتَها في فُتُورٍ
أحسَّتْ بأنَّ رياحَ العَياءِ
سَتَجْتَثُّ أَرْكَانَ عُزْلَتِها
حاولَتْ أَنْ تُرَتِّبَ فَوْضى دواخِلِها
قَبْلَ أَنْ يَجْرِفَ الموجُ أَحْلامَها
لِشَواطِي الجَسَدْ
حاولَتْ أَنْ تُهَرِّبَ جُثَّتَها
نَحْوَ خارطَةِ النَّوْمِ
لكنَّها لَمْ تَكَدْ...
حتَّى أَحَسَّتْ ذِئابَ الطَّوى
وهي تَعْوي بصحراءِ أَمْعائِها
هُوَ الجوعُ يُعْلِنُ غَزْوَتَهُ
بَعْدَما قاطَعُوا وَجْبَةَ «المَطْعَمِ الجامعيّ»
هو الجوعُ عَرَّى هواءَ يَدَيْها
مِنَ الوَرْدِ والاخْضِرارْ

وحينَ تَبَدَّدَ
مِنْ رَمْلِ سَحْنَتِها
فَرَحُ الموجِ

قامتْ تُفَتِّشُ في دُرْجِ مَكْتَبِها
عنْ شريطٍ لفيروز
عَسى صَوْتُ فيروز يُغْنِي...
ثُمَّ أَطْفَأَتِ النُّورَ
كيْ يَخْتَلِي رَصَاصُ الظَّلام
بِأَطْيَارِ الحنْجَرَةِ الخَالِدَهْ
.....
لفيروزَ كُلُّ الظَّلام المُرَابِطِ
في جَنَباتِ المدينَةِ
طُولاً وعَرْضا
لفيروزَ كُلُّ التَّوَهُّجِ أَيْضا

وما كادَ سِرْبُ الحساسينِ يَغْفُو
على رَبْوَتَيْ صَدْرِها
وما كادَ وَجْهُ الشَّهيدِ يُمَزِّقُ بَسْمَتَهُ
وَيَفْتَرُّ عنْ طائِرَيْنِ
يَجُوسانِ أَفْياءَ صُوْرَتِه
حَسْبَ ما يَقْتَضيهِ الظَّلام
وما كادَ وجهُ المدينَةِ يَغْرَقُ
في عَرَقِ الكادِحينْ
حتَّى تَناهى إلى أُذُنَيْها
أَنينٌ حَزِينْ

... هِيَ لَيْلى
لَيْلى العَلِيلَةُ مُنْذُ ثلاثِ ليالٍ
طالِبَةُ الفيزْيَاءِ المُجِدَّةُ

←

أَبْهى البناتِ
وأَلْطَفُهُنَّ
كانَتْ تُراجِعُ في هَدْأَةِ اللَّيْلِ
دَرْسَ الأَلَمْ
وتَنْشُرُ فَوْقَ جِدارِ الظَّلامِ مَوَاجِعَها
وَهِيَ تَهْذي:
أنا الماءُ
نَبْضُ الوُجُودِ
الوقودُ الضَّروريُّ لِلْبَحْرِ والقافِلَهْ
فَمَنْ يَشْتَري عَطشي بِجُرْعَةِ ماءٍ
ومَنْ يَشْتَريني بِسَوْسَنَةٍ ذابِلَهْ؟

كانَتْ سُهوبُ المرارَةِ
تَخْضَرُّ في رئتَيْها
وفي شَعْرِهَا المُتَلاطِمِ
يَنْتَشِرُ اللَّيْلُ كَالمَوْتِ
يَسْتَنْشِقُ الوَقْتَ
والصَّمْتَ
والذِّكْرَياتْ

فَمَنْ سَيُلَمِّعُ وَجْهَ الحياةْ
لِكَيْلا تَفِرَّ النَّوَارِسُ
مِنْ ضَحْكَةِ البَحْرِ
لِكَيْلا تعُودَ الجِراحُ إلى الصَّدْرِ
أَوْ تَسْتَفيقَ الرِّياحْ؟
فمتى تَسْتَقيمُ خطوطُ اللُّغَهْ؟
ومتى نَحْتَفي بِاسْتِعالِ الصَّبَاحْ؟

سناءُ ٱرْتِجالُ التَّذَكُّرِ
في لحظةِ السَّهْوِ
أجملُ قيثارةٍ للغناءْ
جناحٌ يُحَلِّقُ حَوْلَ شُرْفَةِ الصَّمْتِ
نَبْتَةُ ضَوْءٍ تُعَرِّشُ
في مَهْبَلِ الإنْطفاءْ
ولَيْلىٰ رَفيقَتُها تَتَلَوَّى
وَتَغرزُ آهاتِها في الهَواءْ

كانَتْ طيورُ النَّدى
تَتَأَهَّبُ في مُقْلَتَيْها
عَسَى تستطيعُ ٱنْطلاقا
وَرَجْعُ تَوَجُّعِها
يَتَوَزَّعُ بَيْنَ الأَسِرَّةِ:
آه، سناءُ الحبيبَةُ
هَلْ لي بِجُرْعَةِ ماءٍ
فَإِنِّي أُحِسُّ ٱخْتِنَاقا؟
تقومُ سناءُ مِنَ الحُلْمِ
تُوقِدُ في مُقْلَتَيْها النُّجوم
تُقَدِّمُ كَأْسَ المَوَدَّةِ
لِلْجَسَدِ المُسَجَّى فوقَ السَّرِيرِ
وتَسْأَلُ:
ـ تُرى، هَلْ شَرِبْتِ دواءَكِ
قَبْلَ ٱحْتِمائِكِ بِالنَّوْمِ
يا وَرْدَةَ الحَيِّ، أَمْ..؟
ـ مَا شَرِبْتُ سِوَى سَقَمِي
ودُمُوعِ الأَلَمْ

كانَتِ الرِّيحُ تَنْمُو مَعَ الحُزْنِ
مَلْفوفَةً في هواءٍ جريحْ
وكانَتْ طُيورٌ هُلاميَّةٌ
تَتَشَكَّلُ في كَبِدِ الوَقْتِ
مَشْنُوقَةً بِأَناشيدِها المُقْبِلَهْ
ولكنَّ وَجْهَ العَليلَةِ
ما ٱنْفَكَّ يَرْشَحُ بِالأَسْئِلَهْ:

هَلْ تَسَاءَلَ أَحْمَدُ عن صِحَّتِي اليَوْمَ
أَمْ أَنَّ وَجْهِيَ قَدْ ضاعَ
مِنْ قَلْبِهِ ساعةَ الاعْتِصامْ؟
هَلْ رَأَيْتِ خديجةَ هذا الصَّبَاحَ؟
وهَلْ سَلَّمَتْكِ الشَّريطَ الجَديدَ
لِمَجْمُوعَةِ «العاشِقين»
كَمَا وَعَدَتْ؟
هَلْ سَقَيْتِ إِنَاءَ الزُّهُورِ
رَمَادَ المَوَاعِيدِ

ما في السَّريرَةِ مِنْ شَتَلاتٍ
مُهَرَّبَةٍ في عيونِ النَّدى؟
هو القلبُ يُفْرِغُ أَشْجَانَهُ
في كؤوسٍ من السَّهَرِ البلدي
والفتاتانِ في سَمَرٍ خافتٍ
تَنْثُران الحَكايَا المُمِضَّةَ
مِنْ شُرْفَةِ اللَّيْلِ
نَحْوَ وريدِ المَدى
لَيْسَ بَيْنَ الفراشاتِ والوردِ
غَيْرُ أَشْلاءِ عِطْرٍ تَمَرَّدَ
فَٱغْتِيلَ في وَجْنَتَيْهِ الشَّذى
لَيْسَ بَيْنَ نُجُومِ المَدِينَةِ
والوطنِ المُتَكَلِّسِ في القَلْبِ
غَيْرُ أقلامِ صَمْتٍ كسيحٍ
تُسَجِّلُ ما يَفْتَريهِ الصَّدَى
لَيْسَ بَيْنَ عُيونِ الرِّفَاقِ
وفَجْرِ الغَدِ الحُلْوِ
غَيْرُ كَذَا خطْوَةٌ
وكَذَا...

سناءُ ارتجالُ التَّذَكُّرِ
في لحظةِ السَّهْوِ
آخرُ مَنْ يَحْتَويهِ الظَّلامْ
دَمٌ تَتَفَرَّعُ أَغْصَانُهُ
عَنْ رُفوفِ حَمَامْ
نَبْتَةُ ضَوءٍ تَحُلُّ ضَفائِرَها
كَيْ
تَنَامْ!

(مراكش)